تَحولات الزَّمان في مُقدَمة القَصيدة الجَاهلية

(دراسة تحليلية في شعر زهير بن أبي سلمى)

أ.م.د.رعد أحمد علي الزبيدي
كلية الآداب/الجامعة المستنصرية

(خلاصة البحث)

يتناول البحث فلسفة الزمان في دلالتها المركبّة المتحولة بين الزمان الحقيقي الذي يتمثل بين لحظتين مختلفتين هما: لحظة الماضي الجميل لذكريات الأهل والمحبوبة، ولحظة الحاضرة القاسية التي تقف على حجم التشويه للآثار ورسوم الديار المتبقية، إذ تتحرك هاتان اللحظتان في مشهد الطل في مقدمة القصيدة بتحولات مختلفة كانت مضمون البحث الأول (الطلل) المكان المتزمن، الذي يصبح فيه المكان قياساً زمانياً. فالطلل دلالة زمانية أيضاً.

أما لحظة المستقبل المتمثلة بزمن الرحلة (الظعينة) فقد كان الشطر الآخر من الزمان، ولكنه الزمان الشعري الخاص بالشاعر الذي اتخذه إنجازاً ثقافياً في بعده الذاتي والجمعي للانعتاق من جبروة الزمان الخارجي، والانفتاح على المكان الشاسع، الذي يتحول فيه المرء سيداً للزمان والمكان، وتصبح الناقة، والمكان والحدث .. دلالات زمانية منفتحة (الزمكان)، وهو مضمون المبحث الثاني (الرحلة – الظعينة).

هذه المفارقة بين الزمان الحقيقي (الطلل)، والزمان الفني (الرحلة) حاول البحث أن يفسر استجارتهما فيما بينهما والمكان.

البحث

شكَّل الزمن هاجساً قوياً في وجدا الشاعر الجاهلي بشكل كبير، ويستطيع كلُّ باحثٍ درسَ الشعر العربي قبل الإسلام أن يتلمس قوة الزمن في حضوره، وألفاظه ومعانيه، بل إنّ البعض أطلق على اللغة العربية اسم (لغة الزمان) لكثرة احتفالها بالزمن، مما يعكس احساس العرب بالزمان [١].

ويدرك الشاعر الجاهلي بأنّ الزمن مقياس حياته وعطائه، وفيه تحولات عمره خلال محطاته الزمنية، وقد سجّل الكثير من دلالات الزمان المتنوعة في نتاجه، بتأمل عميق يحاكي الدلالات المباشرة، والأخرى غير المباشرة في فلسفة الزمان، وعلاقته معه على مستوى البعد الذاتي، أو البعد الجمعي بأشكاله كافة [٢].

لقد وضع الشعار الجاهلي ارهاصاته الذاتية المحضة في مقدمة قصيدته التي شكلّت رحماً فنياً لمعاني القصيدة وأغراضها، وبنيتها الفنية لعصره أو للعصور اللاحقة من تاريخ الشعر [٣].

ومقدمة القصيدة هـ المنطقة الخالصة لصوت الشاعر وحضوره لغةً وتعبيراً أكثر من أي جزءٍ آخر في القصيدة. وإنّ كلّ ما بعدها يأتي امتداداً لمؤثراتها القوية [٤]، لذلك وقفنا في هذا البحث على الزمان وتحولاته في مقدمة القصيدة الجاهلية، واتخذنا زهير بن أبي سُلمى نموذجاً للشعر الجاهلي، لنضوج تجربته المتأخرة في تاريخ الشعر وحركته، ولأنه عانى من الزمان الطويل في تجربته الخاصة، ولأنّه كان يهتم بقصائده وصناعتها حتى عُرف بالصنعة الشعرية، وحولياتّه المجوّدة [٥].

وقف بعض الباحثين والدارسين على مؤشرات الزمان ومعانيه في الشعر الجاهلي، وتمثلوا كثيراً بالنصوص الجاهلية، ولكن أغلب هذه الدراسات وقفت بين إحدى اثنتين:-

١ –إنها درست الزمان الحقيقي (الطبيعي) من خلال مسمياته وألفاظه في الشعر الجاهلي بشكل معجمي لرصد الزمان وأوقاته، وشرحها لغوياً مع التمثيل بالنصوص الشعرية[٦].

٢ –ذهبت الدراسات الأخرى بدراسة الزمان بمفهومه النحوي والصرفي، وأثر الزمن في الجملة الفعلية، والفعل، واستخراج شواهده من الشعر الجاهلي، ولاسيما الدراسات النحوية واللغوية في الجامعات.

وهي دراسات لم يكن شأنها الاهتمام بمستويات التأمل والفلسفة التي تحرّك بها الزمان في الشعر. فالزمان الحقيقي (الطبيعي)، والزمن النحوي، والزمن الاجتماعي .. خارج النص الشعري هو غيره الزمن الفني داخل القصيدة. فالأشياء الخارجية تكتسب دلالات جديدة عندما تدخل عالم الفن والإبداع. لذا أهتمّ البحث بالزمن الفني وتحولاته في عالم التكوين الشعري. ولربّما قد يكون هذا الزمان الفني مركّباً من الزمان الحقيقي الخارجي (الدهر)، والزمان الذاتي الداخلي في معاني القصيدة [٧].

تميّز زهير بن أبي سُلمى من بين الشعراء باهتمامه الكبير بعنصرين لا ينفكا عن بعضهما في قصيدته، وهما: (الزمان، والمكان)، وكلاهما يدلان على بعضهما البعض. فالزمان سدلُّ على المكان والمكان يدل على الزمان، وكأنّ الشاعر مسكوناً بهما.

وعندما نتحدث عن زمان الشعر في قصيدة زهير، فإنّ زمانين مختلفين يحومان في تجربته هما: الزمان الحقيقي الذي يحضر في وقفة الطلل على الأغلب، والزمان الفني الذي يتولد داخل النص، وهو غالباً ما يكون في مشهد الرحلة. فهناك زمانان، زمان طبيعي يتمثل بلحظة الحاضر العابثة بذكريات الطلل، وزمان فني يُصنع

متمثلاً بالحاضر الممتد إلى المستقبل في سعي الرحلة إلى المنشود. مكلاهما يمد صيرورة التحول إلى الآخر في الحضور ويتناقض معه في الدلالات.

المبحث الأول

الطلل (المكان المتزمن)

يتميز الطلل بحضوره القوي في ذاكرة الشاعر والمجتمع العربي آنذاك [٨]، لأنه اكتسب خاصيتين مهمتين في وجدانه هما: الشعور بالألفة، والشعور بانقضائه، أي إنه زمان ماضٍ لا يعود، وهو جزء حيوي من ذكريات الشاعر الخاصة، بل يصبحكما يقول سارتر: (إنَّ ماضيِّ هو أنا) [٩]، فيغدو الشاعر مسكوناً بالذكرى زماناً ومكاناً، وهذا ما يجعل اللحظة الطللية تعبّر عن (الشذرات المضيئة) التي تصلنا بواقع ومكبوتات المجتمع الجاهلي الذي كان يعاني منها [١٠]. فالبيئة الجاهلية أملت انعكاسها بشكل صادق على بنية القصيدة مما جعل الطلل خاصية للشعر الجاهلي لا ينفك عنه تعبيراً حياً [١١].

ولا يغفل زهير اهتمامه الأكيد لتفاصيل المعلم الجغرافي للطلل، فهو يتذكره بكلّ حفاوةٍ، وهو مكان يألفه ويمنحه شيئاً من القداسة، وبعداً زمانياً مركباً، لذا يشكّل الزمان والمكان خاصيتين امتدت بينهما حياة الشاعر وتجربته الفنية، وكذلك الكثير من شعراء الجاهلية [١٢].

أَمِن أُمِّ أَوفَى دِمنةٌ لَم تكلَّمِ بحومانةِ الدرّاجِ، فالمتثلَّمِ
ديارٌ لها، بالرَّقمتينِ، كأَنَّها مَراجعُ وشمٍ، في نواشرِ معْصَم
بها العينُ، والآرامُ، يمشينَ خِلفَةً وأطلاؤُها ينهضْنَ،من كُلِّ مجثَمِ [١٣]

إنَّ ألفاظ المكان (حومانة الدّراج، المتثلم، الرقمتين ..) تلتقي مع أمكنة أخرى كثيرة في طلل زهير:

لِمَنْ الدّيارُ بقنَّةِ الحِجْرِ أُقوين من حججٍ ومن دَهْرِ (١٤)

وقوله:

دارٌ لأسماءَ بالغمرين ماثلةٌ كالوحي ليس بها من أَهلها أَرِمُ

سالتْ بهم قرقرى، برك بأيمنهم فالعاليات،وعن أيسارهم خِيمُ (١٥)

فأسماء: (قنة الحجر، الغمر، قرقرى، برك خيم ..) وغيرها المزدحم كثرةً في شعر زهير هي على الأغلب أماكن معروفة بالجزيرة، يحددها زهير تحديداً جغرافياً موضحاً فيها حركة الزمان وسيطرته، وكأنها مرابع زمانٍ أيضاً، ففيها حدث زمني متراكم على المكان (الحجر) (١٦). هذا الحجر الذي يولِّد في الذاكرة عمق الزمان وقدرته المدمرة، التي تحاصر مظاهر الحياة وتحولها إلى إطلال(١٧).

غشيتُ الديار بالبقيع فشهد دوارسَ،قد أَقوينَ من أُمِّ معبد (١٨)

يتشرب طلل زهير الزمنَ من خلال دلالتين بارزتين هما:

١ –الزمان المباشر:

وهو الزمان الطويل المستنزف على بقايا الديار والرسوم التي حرص الشاعر أن يردد مسمياته المتنوعة بشكل لا انفكاك عنه في كلِّ مقدماته. فالزمان هنا (سلطة قاهرة) لا تهمله ولا تمهله (١٩).

وقفت بها من بعد عشرين حجةً فلأيا عرفتُ الدارَ بعد توهم (٢٠)

وقوله:

كم للمنازلِ من عامٍ زكم زمنٍ؟ لآل أَسماءَ بالقُفَّينِ فالرَّكُنِ (٢١)

فتزدحم ألفاظ الزمان: (الأيام، الحجج، الدهر، السنون، العام، الحول، الحائل، الزمن، القِدم، العهد ...)، وغالباً ما تدلُّ هذه الألفاظ على الزمن المتعاقب على الأطلال، وهو يشير إلى زمن طويل مرَّ بالديار.

عَفَا عام حلَّتْ: صَيفُهُ، ورَبيعُهُ وعامٌ وعامٌ، يتبعُ العامَ قابلُ

تحمَّلَ منها أَهلُها، وخَلتْ لها سِنُونَ، فمنها مستبينٌ، وماثلُ[٢٢]

وهذا المكان المتزمن (الطلل) يوحي بشيء من رثاء الذات. فالحجر والشاعر كلاهما يعانيان من الدهر، ويرتديا ثقله المتزايد بمرور الزمان، ويغدو الطلل مكاناً غاية في التزمن لربما شارك معاني الرثاء الذاتي لقديم الشعر الذي تحدث عنه ابن سَلاّم الجُمحي في أولية الشعر [٢٣]، وغدا هذا التزمن البؤرة الشعرية الأولى في تكوين القصيدة الجاهلية [٢٤].

٢ –الزمن غير المباشر:

يبرز الزمن غير المباشر بشكل واسع في مقدمة الطلل، بل ويسيطر على حركتهِ فهو زمنٌ نراه من خلال ما أَصاب الطلل من تشويه كبير بفعل العمق الزمني المنسكب عليه عبر حركة الطبيعة بأشكالها المتعددة وفصولها، وعبر حركة الرياح والحيوان المستمرة بالحدث التي دلّت على زمن بعيد مستنزف ويمكن ملاحظة الزمن من خلال دلالتين هما:

أ – حركة الطبيعة:

تقول ميري ورنوك (Mary Warnok): إننا نفكر بالزمن على أنه قابل للقسمة إلى أجزاء منفصلة عن بعضها ينتهي جزء صغير ليعقبه جزء آخر، وكذلك الحال بالتفكير بالمكان متخذة من شكل الشجرة المنتصبة الآن التي ستغدو خشباً للتدفئة في وقت لاحق [٢٥]. لذا فإنّ التقطيع، والتشويه أو التلف الذي يصيب

المكان يدلنا بشكل آخر على زمن منجز قد مرَّ طويلاً حتى غدا هذا المكان بصورة التلف، وهذا التبادل المنطقي ينطبق كثيراً على شأن الطلل مع الشاعر القديم. فيصبح المكان دلالة زمانية في طلل زهير. فكلما كان المكان مشوّهاً بالضرر كلما عبَّر عن عمق اشتجاره بالزمن:

أَمِنْ أُمِّ أوفى دِمنَةٌ لم تكلَّمِ بحومانةِ الدَّراج فالمتثلَّمِ (٢٦)

فالدِّمنة هي المكان الذي بقى من آثار القوم، وقد احتوى على معالم التشويه والتغيير (بقايا الوشم) مما يؤكد حضور الزمان بسنواته ودهره المنسكب على عوالم الحجارة والمكان المتبقي.

ديارٌ لها بالرقمتين كأنّها مراجعُ وشمٍ في نواشر معصمِ (٢٧)

إنَّ دلالات المكان (أثافي، نؤيا، جذم الحوض ..) وإنْ كانت مسميات مكان إلا إنّها تعبّر عن معاني زمنية أيضاً، لأنّ الحدث الذي مرَّ بالطلل بسبب حركة الرياح والأمطار والرواعد وغيرها عبر استمراريتها الزمكانية هي التي انجزت هذا الضرر والتشويه في عرصات الطلل، وهنا يصبح (المكان رديف للزمان)) (٢٨). وتتكرر هذه الصور المكانية المتضررة في طلل زهير.

عَفَا من آل فاطمةَ الجِواءُ فيمْنٌ، فالقوادِمُ فالحساء

فذو هاشٍ، فميثُ عريتناتٍ عَفَتْها الرِّيحُ، بعدكَ والسَّماءُ(٢٩)

فالطلل يمتلك الآن شكلين هما: الطلل الماضي، والطلل الحاضر. أيّ مكان كُنّا به، وله ملامحه المفعمة بالحركة والجمال، وهو نفسه الآن يعاني التشويه والضرر، ولكنه يبقى مكاناً يتواصل معنا عبر الزمن الذي لفّنا مثلما يلفّه، فالطلل هو نفسه كما كان أول عهده، وأنا الشاعر نفسي كما كنت. وهنا يصبح الطلل هو الشاعر أو

يصبح هويةً تعبّر عن شخصية الشاعر، لأَن دلالة الزمن الضمنية موجودة عند كليهما، لذلك نجد الشاعر الجاهلي أكثر وعياً من غيره بقضية الطلل لوجود هذا الزمن الضمني الحيّ بينهما، الذي يعني امتداد الوعي بينهما، فيصبح الطلل جزءاً مهماً من شخصية الشاعر الجاهلي، لأن كليهما هو نفسه. الشاعر هو نفسه، والطلل هو نفسه لوجود الوعي بالآخر، لذلك يصبح الطلل وعياً خاصاً بالشاعر الجاهلي للمشترك الزمني بينهما الذي حافظ على أن يجعلهما هما رغم التشويه الذي أصابهما،إذ أن اختبار الإنسان للزمن يأتي من خلال تحقيق عاملين أساسيينهما:

١ –لتتابع أو التسلسل (Sequence) والذي نلاحظه من خلال التغييرات المحسوسة فيما حوله.

٢ –الديمومة أو الاستغراق (Duration) والتي تقتضيها هذه التغييرات [٣٠].

لذا سيصبح الزمن الموجود في الطلل ينتمي إلى ذاكرة الشاعر التي تسحب خزينتها من الماضي، أيّ زمن الوعي للشاعر الجاهلي زمن التجربة والمعرفة، وهو ما يتميز به العمق الفني للطلل عند الشاعر الجاهلي مما أصبح عليه الطلل من استخدام تقليدي متحجر عن الشعراء بعد الجاهلية،لغياب التجربة، والتواصل معه. فهي عندهم رؤية خارجية سطحية لانقطاع التواصل الزمني والإحساس المتبادل بالوعي، لأن الطلل لم يمثل عندهم ذاكرة حقيقية، أو ملكية خاصة، كما هو عند الشاعر الجاهلي، أي هو ليس ماضيهم الخاص، لذا لا نستغرب صيحات الاستنكار ضد الطلل عند بعض الشعراء العرب بعد العصر الجاهلي، أو انكماشها كظاهرة فنية فيما بعد.

كم للمنازل من عامٍ، ومن زمن؟ لآل أسماء بالقُفَّين فالرَكُنِ

وإذ كلانا إذا حانت مُفارقةٌ من الديِّار،طوى كشْحاً على حَزَنِ[٣١]

هناك أفعالٌ تدل على ثقل الحركة، وتراكم الزمان .. (حانت، طوى كشحاً، يشُطُّ ..) تعبّر عن إحساس عميق بالحزن لدى الشاعر بسبب الضرر الحاصل بديار المحبوبة والأهل، والزمان المستهلك الطويل من رصيد العمر. فالألفاظ (عفى، القِدم، غيّرها الأرواح، ماثلة، الرّق، الوحي ..) هي دلالات توحي بمراسيم تعمل على تشكيل الطلل وتستدعي ألفاظاً زمانية أخرى مثل: (الحجج، الحول، السَّنة، العام الدهر ..) تعمل على تحقيق ما يسمى (الإبدال التدريجي) [٣٢]، أي التذكير بالتلف الحاصل للمكان عبر الزمن، وبضمنها الإنسان فيصبح الطلل في لحظته الحاضرة منطقة أو مكاناً شظوياً بعدما كان عامراً بعافيته. فهو بقايا رسوم أو رقش أو وحي، أو ما يؤكد حجم الضرر الكبير فيه، فكلما كان التشويه كبيراً دلَّ على زمنٍ طويلٍ مرَّ به، وفعل ذلك.

وقد يلجأ زهير إلى استخدام الحيوان كتعبير عن دلالة زمنية طويلة عاشها الطلل.

فَذَرْوةُ، فالجِنابُ كأَنّ خُنْسَ الذِّ ... عاجِ الطاوياتِ، بها الملاءُ

يَشمِنَ بُرُوقَهُ، ويَرُشُّ أَري الـ ... جَنُوبِ على حواجبها العماءُ

كأَنَّ أَوبِدَ الثِّيران، فيها ... هجائنُ، في مغابنها الطِّلاءُ[٣٣]

تدل هذه الصورة على انتشار الحيوان (البقر، النعاج، المها ...)، وهي حيوانات نافرة، خائفة، حذرة .. لا تطمئن بالمكان بسهولة إلاّ بعد تأكد من خلو الإنسان عنها، وهي صورة توحي بالمناخ الزمني المطلوب لاطمئنان هذه الحيوانات أَنيساً للطلل، أيَّ إنّ هناك ردحاً زمانياً انقضى لحضور الحيوان في الطلل.

ولا بُدّ للشعور بالزمان من حدوث حركة المادة في حيزها أو مكانها وكلما تحركت المادة تحقق التغير والانجاز، ولكن الطلل لم يحقق تحركه أو انجازه بعد، لأنّه ما

زال قابعاً تحت رزح الزمان المستمر بحركته من خلال (الأيام، الأعوام، الدهور...) فهو زمن منتصر على المكان، وبما أن الزمان هنا هو الزمان الحقيقي (الطبيعي)، وبما أن المكان (الطلل) هو ذاكرة الشاعر وشخصيته، فإن الزمان هو المنتصر على الطلل (الشاعر). وبذلك يحسُّ الشاعر بالهزيمة أمام الزمان ويلجأ إلى خطاب المواساة والتحبب لطلله (حييت من طلل، ألا أنعم صباحا، وعمي صباحاً..) بينما يعجز الطلل المحبب من تحقيق ما يخرجه من طوق الزمان، فيبقى تابعاً مستلماً للزمان. لذا فإنّ الطلل في الشعر الجاهلي يبقى مقموعاً زمانياً دائماً، وانجاز الحركة فيه صفر، على العكس من حركة الزمان الحقيقي المستمرة دون توقف.

إنّ هذا الاحساس بالتوقف والعجز في اللحظة الطللية جعل الشاعر الجاهلي يتخذها ميقاتاً ينطلق منه لتغيير الواقع، ولكسر القمع ومناخ الاحساس به داخل القصيدة من خلال زمانٍ خاصٍ به، هو زمان الرحلة (الزمان الفني) الذي يصنعه في رحلة ظعينته، حيث يكون زمن الشاعر منتصراً على مكان البادية حيث الرحلة والحركة التي تمنح الشاعر السيرورة الزمنية للحياة، وتمنحه جديده الذي يبحث عنه (الانعتاق) من الجمود [٣٤].

لذا لا نذهب مع بعض الباحثين الذين يعتبرون الشعر الجاهلي متصنعاً بالانطفاء والانكفاء أمام الزمن الماضي، أو متردد مع المستقبل، أو بعض التعريفات التي لم تعط حقيقة الطلل والرحلة في بعدها الحقيقي، ولعل تعريف ابن قتيبة لمقدمة القصيدة وردت بهذا الفهم [٣٥]. بل أن الشعر الجاهلي في وقوفه على دلالات الزمن يبحث عن المستقبل، والتجدد وعدم الاستسلام لكينونته القاهرة، فهو شعر يدعو لتحقيق إرادة متطلعة فاعلة [٣٦]، وسيبقى الطلل رمزاً فاعلاً في الشعر الجاهلي ومعبراً

صادقاً عن مجتمعه وعصره، لأنّه الذاكرة المعرفية التي خبروها بثقة في حياتهم آنذاك، وليس وضعاً خارجياً يفتقر إلى الوجدان والشعور [٣٧].

المبحث الثاني

رحلة الظعينة (الزمان المتمكن)

إذا كان الطلل لا يعيش الحركة في المكان لأنه صفر في حركته، فإنّ زمن الرحلة يحقق الحركة على مستوى المكان والزمان بشكل لافت. فهو زمان مشتجر من المكان، ومكان مشتجر مع الزمان، وهذا ما يميز زمان الرحلة، لأنه زمن الشعر (البعد الفني) الذي صنعه الشاعر في قصيدته، وهي المكون الثقافي لإنسان المنطقة العربية آنذاك [٣٨].

يحاول زهير أن يؤكد على الانجاز المكاني في الرحلة (الزمكان) وعلى العكس مما كان عليه زمن الطلل (المكان المتزمن)، ورغم زحمة المكان في قصيدة زهير إلاّ أن هذا المكان يوحي بدلالة زمانية مهمة من خلال الرحلة، وإنجازها حدث الحركة.

تبصَّر خَليلي، هل ترى من ظعائنٍ تحمَّلنَ بالعلياءِ من فوقِ جُرثُمِ؟
بكرنَ بُكوراً، واستحرن بسُحرةٍ فَهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليد في الفمِ
جَعَلْنَ القنان عن يمينٍ، وحَزْنَهُ وكم بالقنانِ من مُحِلٍّ ومُحْرَمِ [٣٩]

يؤكد زهير في رحلته البُعد الزمني من خلال ثلاث دلالات أساسية هي:

أولاً: المكان:

يزدحم شعر زهير بالمكان بشكل كبير، حتّى لتخشى تأثيرها على شاعرية النص في بعض الأحيان، مما يجعل مساحة الرحلة نمطاً جغرافياً واضحاً بمسميات المكان.

سالتْ بهم قرقر، برِكٌ بأيمنهم فالعالياتُ، وعن أيسارهمْ خِيمُ
عَوم السَّفين، فلما حالَ دونهُمُ فَيدُ القُرَيّاتِ،فالعتكان، فالكرمُ[٤٠]

ويقول زهير:

تَبصَّرْ خليلي، هل ترى من ظعائنٍ كما زال في الصُّبح الأَشاءُ الحوالُ
نَشَزْنَ من الدَّهناءِ، يقطعنَ وَسْطَها شقائقَ رَمَلٍ، بينهنَّ خمائلُ
فلمّا بَدَتْ ساقَ الجواءِ، وصارَةٌ وفَرشٌ، وحَمّاواتهنَّ، القوابلُ[٤١]

تفيض رحلة زهير بأسماء مختلفة ومتنوعة، ومتباينة في بعدها وقربها .. وكأنها رحلة استكشاف سريعة خارقة، تعبّر عن ردّة فعلها المعاكسة للقنوط المكثّف في مكان لطلل القابع دون حراك. فهذه الأماكن الكثيرة (العلياء، جرثم، وادي الرّس، القنان، حوسلمى، ماء شرج، قرقرى، بِرْك، خيم، الشمراخ، العتكان، الكرم، وادي الغمار، فيد، الدهناء، الجواء، صارة، فرش، حماوات ..) والكثير من المسميات التي تدل على الذاكرة الزمانية البعيدة لدى الشاعر التي استدعاها من تلافيف زمن الذاكرة، وتدل على الزمن المنجز القادر على المرور بكل تلك الأماكن المتشربة بروح المغامرة، والفعل الخارق الذي يقترب من فعل الأسطورة، فهو زمان الشعر الذي انجزته ذاكرة الشاعر ليتحول إلى فن شعري يخلد ذاكرة الجماهير، ويغدو انجازاً جميعاً، وهي أعلى لحظات الإبداع اقتداراً وأصدقها في تحويل الذاكرة الفردية، وزمنها الذاتي، إلى ذاكرة وزمن جمعي.

ويبدو أَنّ الانجاز المكاني يحتاج إلى زمن متميز يمنح الشاعر مقدرةً على قهر المكان في تحقيق الحدث الكبير، ولعل الناقة كانت إحدى هذه الأدوات الزمنية السريعة القادرة على جعل الشاعر سيد الزمن، ومسيطراً عليه، بعدما كان الزمن الطبيعي هو سيد الحضور في لوحة الطلل. وكذلك الخيال الشعري الذي يكون عنصر

ترحيب في صنع الفن واستدعاء زمن الذاكرة البعيد في رفد الصورة الشعرية، لذا يبدو الرحلة عند زهير عمراناً مكانياً في ظاهرِه، ولكنه في الحقيقة هو عمران زمني في التأكيد والحضور.

ثانياً: الحدث

ونقصد به الحدث المتمثل بالحركة المنجزة في مشهد الظعينة عند زهير، وهي الفعل الذي نلاحظه بوضوح في الرحلة، والذي يمنح دلالة الزمن حضوره وقوته، بل ربّما وجوده الشعري في النص. من خلال جملة أفعال قد دلّت على جهد الزمن وتدفقه في حركة الرحلة، مثل: (بكرن، استحرن، نكَّبت، يقطعْنَ، حانتْ، سالت، نشَزْن، تُهوِّن ..). هذه أفعال دلّت على حركة سريعة لحدث بطولي، يقترن مرَّةً بالزمن الدال على وقتهِ (بكرن بكوراً) وقت الصباح الباكر، و(استحرن بسحرة) زمن المساء، مما يدل على شيءٍ من ديمومة الزمن من خلال هذه الحركة المستمرة صباح مساء.

بكرن بُكوراً، واستحرن بسُحرةٍ فُهنَّ ووادي الرَّسِّ، كاليدِ في الفم(٤٢)

وقد تقترن حركة الأفعال بالمكان الذي ينفتح في مساحته الجغرافية ليدل على سعة الحركة الكبيرة، وسرعة الزمن المنجز الذي استطاع أن يحقق هذا التخطي الواسع لأماكن الصحراء، فتصبح الأماكن شاهداً على فعل زمن الرحلة الأسطوري، حيث يصبح الشاعر سيد الزمان وصانع الأسطورة.

ظهرنَ من السُّوبانِ ثم جزعنَهُ على كلِّ قيني، قشيب ومفأَمِ
وورَّكْنَ في السُّوبان، يَعْلُونَ متنَهُ عليهنَّ دَلُّ الناعمِ المتنعِّمِ(٤٣)

وقوله:

نَشَزْنَ من الدَّهناءِ، يقطعنَ وَسْطَها شقائقَ رَملٍ، بينهنَّ خمائلُ
تُهوِّنُ بُعَد الأَرض، عنِّي فَريدةٌ كِنازُ البضيعِ،سَهْوةُ المشي، بازلُ(٤٤)

ويتضح سيطرة الحركة بشكل كبير على أحداث الرحلة، وهي حركة عمّقت بعدها في الزمان والمكان لتأكيد زمان الشعر.

ثالثاً: الزمان:

قلنا إنّ الزمان الذي أصاب الطلل هو الزمن الطبيعي، والذي تزمَّنت به كل الأشياء في مكان الطلل المحدد معالمه الجغرافية، ولكن الزمان الذي نراه في رحلة الظعينة هو زمن الذاكرة التي استعادها الشاعر ليصنع زمنه الفني الخاص القادر على التخطي والانعتاق، وتحقيق الفعل الأسطوري كما في قوله:

عهدي بهم، يوم باب القريتين، وقد زال الهماليج بالفرسان واللجُمُ(٤٥)

والشاعر يتابع هذه الرحلة بنظره رغم المسافات الأفقية الواسعة، وهي رؤية خيالية وليست عينية. محاولاً أن يصنع أسطورته ونموذجه المتفرد في الانجاز وكسر ثبوتية المكان.

وما زلتُ أرمقهم حتى إذا هبطت أيدي الركاب بهم،من راكس فلقا(٤٦)

فالرحلة تعبر عن ذاكرةٍ ناصعة تحتوي جمالاً، وألواناً، ورقّةً في نسائها، وعزَّة أهلها، وكثرة جمالها، وطول قافلتها .. كل ذلك يؤكد جمالية الأشياء وروعتها التي أكسبتها الذاكرة بهاءً متميزاً، ومن ذلك كان الزمن الجميل الذي منح الشاعر الحضور المنتصر في رحلة الظعينة، لذا كانت الظعينة عند زهير تمثل رحلة العمر بزمنها وانجازها، وحدثها وناسها ..

كأنَّ عيني وقد سال السَّليلُ بهم وعَبْرةٌ ما هُمُ، لو أَنَّهُمُ أَمَمُ (٤٧)

لقد تلوّن الزَّمن في قصيدة زهير من تركيب مختلفٍ متناقض في الدلالة والحضور، فقد كان الزمن الحقيقي مسيطراً على الطلل ومناخاته بكل تفاصيل المكان (الأثافي، السفع، النؤي ..)، وكانت له السلطة القاهرة، فكلُّ شيءٍ ساكن غيره المترع بالحركة

والتأثير، وكان زماناً سلبياً في تأثيره على ذاكرة الشاعر وملامح شخصيته التي ينتمي إليها. فالطلل يكتنز زمانين زمن الشاعر الماضي في ذكرياته الجميلة التي أثنى عليها الزمن الحقيقي وشوهها، والزمان الثاني يتمثل في لحظة الحضر التي أفقدت كلَّ شيءٍ حولها من ملامح الحركة والحياة، لذلك كان الشاعر يبحث عن زمن آخر يخرجه من سكونية ما يعانيه من ملل القنوت، حتى وإن كان ذلك على ذاته.

سئمتُ تكاليف الحياة ومَنْ يعش ثمانين حولاً لا أبالكَ يسأَمِ (٤٨)

وقد كان لزهير زمن رحلته الطويلة، الذي صنعه لاستلهام منجزه الثقافي في تحقيق سيرورة الحياة، وديمومتها المتطلعة إلى التجدد والانعتاق.

تَبصَّرْ، خليلي، هل ترى من ظعائنٍ تَحمَّلْنَ، بالعلياءِ، من فوقِ جُرثُمِ

فلمّا وَرَدْنَ الماءَ إلا جمامُهُ وضعنَ عِصيَّ الحاضِرِالمتخيِّمِ (٤٩)

الهوامش

(١) ينظر: الزمان الدلالي، ص13، د. كريم زكي، دار غريب – القاهرة، ط2، د. ت.

(٢) ينظر: الزمن عند الشعراء العرب، ص7، عبد الاله الصائغ، دار الرشيد للنشر- بغداد، 1982م.

(٣) ينظر: المطلع التقليدي في القصيدة العربية، ص11، عدنان عبد النبي، مطبعة الشعب- بغداد، د. ت.

(٤) ينظر:الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص125، د. يحيى الجبوري، دار التربية- بغداد، د. ت – الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، ص 48، د. بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة – بيروت- في الشعر الجاهلي، ص87، د. رعد أحمد الزبيدي، دار الينابيع، دمشق، ط2، 2008م.

(٥) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 97، د. إحسان عباس، دار الشروق، عمان- الأردن، ط 2، 1993م. – تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، ص118، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، د. ت.

(٦) مثل دراسة د. عبد الآله الصائغ: الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام.

(٧) ينظر: جماليات الشعر العربي، ص 144، د. هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 2007م. – في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي، ص 140، د. أحمد محمود خليل، دار الفكر –دمشق، ط1، 1417هـ– 1996.

(٨) ينظر: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ص229، د. علي البطل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الأندلس، ط2، 1401هـ–1981م.

(٩) بالذاكرة، ص99، ميري ورنك.

(١٠) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي، ص118، يوسف اليوسف.

(١١) ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي، ص 20، حبيب مونسي، اتحاد الكتاب العرب– دمشق، ط 1، 2001م.

(١٢) ينظر: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، ص 177، د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، 1976م.

(١٣) شرح شعر زهير بن أبي سُلمى، ص 16: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة –بيروت، ط 1، 1402هـ– 1982م.

(١٤) الديوان، ص76.

(١٥) الديوان، ص116.

(١٦) ينظر:مدخل إلى الشعر الجاهلي،ص61،د.عنادغزوان، مركز عبادي – صنعاء، ط1، 1402هـ–2000م.

(١٧) ينظر: جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، ص 146، د. هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،

(١٨) الديوان، ص18.

(١٩) ينظر: فلسفة المكان، ص33، حبيب مونسي.

(٢٠) الديوان، ص96.

(٢١) الديوان، ص116.

(٢٢) الديوان، ص213.

(٢٣) طبقات فحول الشعراء 27/12، محمد بن سلام الجمحي،تح:محمودمحمدشاكر،مطبعة المدني بمصر،د. ت.

(٢٤) ينظر: فلسفة الشعر الجاهلي، ص87، د. هلال الجهاد، دار المدى –دمشق، ط1، 2001م.

(٢٥) الذاكرة، ص49.

(٢٦) الديوان، ص16.

(٢٧) الديوان، ص16.

(٢٨) الزمان الدلالي، ص40، د. كريم زكي حسام الدين.

(٢٩) الديوان، ص52.

(٣٠) الزمان الدلالي، ص48.

(٣١) الديوان، ص96.

(٣٢) الذاكرة في الفلسفة والآدب، ص105.

(٣٣) الديوان، ص54.

(٣٤) ينظر: فلسفة المكان، ص19.

(٣٥) الشعر والشعراء، ص31، ابن قتيبة، دار احياء العلوم –بيروت، ط3، 1407هـ- 1987م.

(٣٦) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي، ص 121، وسف اليوسف. – الزمان الدلالي، ص 54، د. كريم زكي حسام الدين. – شعرنا القديم والنقد الجديد، ص 144، د. وهب روويه، عالم المعرفة، الكويت، 1416هـ- 1996م.

(٣٧) ينظر:فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ص21، ايليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني – بيروت، 1980م.

(٣٨) ينظر: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص53، د. عمر بن عبد العزيز السيف، الانتشار العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2009م.

(٣٩) الديوان، ص19.

(٤٠) الديوان، ص19.

(٤١) الديوان، ص215.

(٤٢) الديوان، ص20.

(٤٣) الديوان، ص21.

(٤٤) الديوان، ص215.

(٤٥) الديوان، ص118.

(٤٦) الديوان، ص41.

(٤٧) الديوان، ص117.

(٤٨) الديوان، ص34.

(٤٩) الديوان، ص22.

المصادر والمراجع

١ – بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، د. عمر بن عبد العزيز، دار الانتشار العربي – بيروت، ط1، 2009م.

٢ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، د. إحسان عباس، دار الشروق، عمان – الأردن، ط2، 1993م.

٣ – جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعر الجاهلي، د. هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، حزيران- يونيو 2007م.

٤ – الذاكرة في الفلسفة والأدب،ميري ورنوك،ترجمة فلاح رحيم،دارالكتاب الجديد،ط1،آذار- مارس، 2007م.

٥ – الزمان الدلالي، دراسة لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية، د. كريم زكي حسام، دار غريب – القاهرة، ط2، د. ت.

٦ – الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الآله الصائغ، دار الرشيد للنشر- بغداد، 1982م.

٧ – الزمن في شعر زهير بن أبي سُلمى (رسالة ماجستير) أمل حميد محمد الطويرقي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2006م.

٨ – شرح شعرزهير بن أبي سُلمى،تح: فخر الدين قباوة،دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط1، 1402هـ- 1982م.

٩ – الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، دار التربية، بغداد، د. ت.

١٠ – الشعر والشعراء، لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، دار احياء العلوم، بيروت- لبنان، ط 3، 1407هـ- 1987م.

١١ – شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهيب أحمد رومية، عالم المعرفة، الكويت، 1416هـ- 1996م.

١٢ – الصورة الفنية في الشعرالجاهلي في ضوء النقد الحديث،د.نصرت عبدالرحمن،مكتبة الأقصى،عمان، 1976م.

١٣ – الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د. علي البطل، دار الأندلس، ط2، 1401هـ- 1981م.

١٤ – طبقات فحول الشعراء،محمد بن سلاّم الجُمحي، تح: محمود محمد شاكر،مطبعة المدني،القاهرة،د. ت.

١٥ – الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي، د. بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1406هـ- 1986م.

١٦ –فلسفة الشعر الجاهلي، دراسة تحليلية في حركية الوعي الشعري العربي، د. هلال الجهاد، دار المدى، دمشق، ط1، 2001م.

١٧ –فلسفة المكان في الشعر العربي،قراءة موضوعاتية جمالية،حبيب مونسي،اتحاد الكتاب العرب،دمشق، 2001م.

١٨ –فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، أيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م.

١٩ –في النقد الجمالي،رؤية في الشعرالجاهلي،د.أحمدمحمودخليل،دارالفكر،دمشق، ط1، 1417هـ- 1996م.

٢٠ –في الشعر الجاهلي، د. رعد أحمد الزبيدي، دار الينابيع، دمشق، ط2، 2008م.

٢١ –مدخل إلى الشعر الجاهلي، د. عناد غزوان، مركز عبادي، صنعاء، ط1، 1420هـ- 2000م.

٢٢ –المطلع التقليدي في القصيدة العربية، عدنان عبد النبي البلداوي، مطبعة الشعب، بغداد، د. ت.

٢٣ –مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، دار الحقائق، بيروت، ط4، 1985م.

٢٤ –مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، د. هدى شوكت بهنام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م.

Time shifts in the introduction to the poem ignorance (Analytical study in the poetry of Zuhair bin Abi Salma)

Assistant Professor Dr. Raad Ahmed Ali Al-Zubaidi
College of Arts / University of Mustansiriya

(Abstract Research)

Addresses research philosophy decade in significance vehicle metamorphic between the time the real is between two moments two different: the moment the last beautiful memories of parents and beloved, but the present moment harsh stand on the size of distortion effects and fees Diar remaining, with moving these Allhztan in a scene demand in the introduction to the poem shifts different the content of search I place Almetzmn, when it becomes where analogy temporally. Valtall also temporal significance.

The moment the future of a time of flight (Zaana) was part other end of the decade, but time poetic your poet Adopted achievement culturally beyond the self and the collective for the emancipation of time outside, and openness to place the vast, which turns where one master of time and space, and become a camel , place and event .. Connotations open temporal (space-time), which is the content of the second part (trip - Zaana). This paradox between time real, technical and time (flight) Find tried to explain Astjarthma with each other and place.